﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾ [الحجر: 58 - 60]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين عدمِ القُنوطِ مِنَ الرّحمةِ، وبين نجاةِ آلِ لوطٍ مِنَ العذابِ الشّاملِ

لمّا سأل إبراهيمُ عليه السلام الملائكةَ عمّا أُرسِلوا لأجلِه، كأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ ثمَّ استثنى منهم آلَ لوطٍ، فلا ينالُهم العذابُ، ثمَّ استثنَى من آلِ لوطٍ امرأتَه لتكونَ منَ الغابرين[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ من الجَرْم، وهو: القَطْعُ[2]، وقيل أَصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أَهْلِه، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْماً؛ لأَنَّه كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[3]، والإجرامُ: ارْتِكابُ الجُرْمِ وهو الإثْمُ العَظيمُ، وأَعْظَمُ بالإجرامِ الكفْر[4]، يُقالُ: أَجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْباً أو جَنَى جنايةً[5] والمُجْرِمُ في اصْطِلاحِ القُرآنِ هو الكافِرُ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩﴾ [المطففين: 29]، والمقصودُ بالإجرامِ في الآية: الكفرُ، والمرادُ بالقَومِ المُجْرِمين: قومُ لوطٍ أهلُ سَدومَ وقُراها.

2) ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾: أَصْلُ الإنجاءِ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمدودٌ، ونَجاةً، مَقْصورٌ، وأَنْجَيْتُ غَيْري ونجَّيْتُه، واستَنْجَى مِنْهُ حاجَتَهُ: تَخَلَّصها. وانْتَجَى مَتاعَه: تخلَّصه وسَلَبَه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (جرم).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/210.
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (جرم).

ومعنى نجَوْت الشيءَ: خَلَّصته وألْقَيْته. والنَّجاةُ: الخَلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ[1]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: ما ارتفع مِنَ الأرض فَلَمْ يَعْلُه السَّيلُ فَظَنَنْتُهُ نَجاءَك، والجَمْعُ نِجاءٌ[2]. والمقصودُ بالإنْجاء في الآية: وهو جَعْلُ الغَيْرِ ناجِيًا.

3) ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: أصلُ (غبر): يَدُلُّ على البَقاءِ[3]. يُقالُ: وغَبَرَ الشيءُ يَغْبُرُ أي بَقِيَ، وغَبَرَ الشّيءُ يَغْبُرُ غُبوراً: مَكَثَ وَذَهَبَ، والغابِرُ: الباقي. والغابِرُ: الماضي، وهو مِنَ الأضداد[4]؛ وأشْهَرُ إطلاقَيْهِ هو المُنْقَضي؛ ولذلك يُقالُ: غَبَرَ بِمَعْنَى هَلَكَ. وهو المُرادُ هُنا في الآية: أي: كانَتْ مِنَ الهالكِينَ، أي: هَلَكَتْ مع مَنْ هَلَكَ مِنْ أهلِ (سَدومَ).

المَعْنى الإجْماليُّ:

سُنّةُ الله تعالى في إنزال الهلاكِ، إنجاءُ المؤمنين وحِفْظُهم

قالتِ الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّ اللّهَ أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِ لوطٍ المُشركينَ إلّا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ به، فلن نُهلِكَهم، وسنُنَجّيهم أجمعينَ إلّا امرأتَه الكافِرةَ، قَضَينا أنَّها مِنَ المُهلَكينَ الباقينَ في العذابِ؛ لكُفرِها. وقد وصفَهم ﷻ بالإجرام؛ لأنَّهم لم يكفروا فقط، بل أضافوا إلى الكُفرِ فَقْدَ الطَّبيعةِ الإنسانيَّةِ. فشذّوا بفاحشةٍ ما سبقَهم بها أحدٌ مِنَ العالمين، وإذا كانوا قد وصَفوهم بأنَّهم مجرمون، فمؤدَّى ذلك أنَّهم جاءوا لإنزال العُقوبةِ بهم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

اسْتِدراكُ الأسماعِ، من عادةِ القرآنِ في القَصصِ، لاستمرارِ الانتفاعِ

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾، وفيه أنّه لمّا سألَ إبراهيمُ الملائكةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/130.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غبر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غبر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/36 - 37، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4097.

عنِ الخطبِ الذي أرسلهم اللّه من أجلِه كان السّامعُ مُتَشَوِّقًا لمعرفة جوابِ الملائكة، فكأنَّ تقديرَ الكلام: فماذا قالتِ الملائكةُ في جوابِ سؤالِ إبراهيمَ، فجاء قولُه تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾.

دَلالةُ الضّميرِ في جملةِ: ﴿قَالُوٓاْ﴾:

عَـوْدُ الضَّميرِ على الاسْمِ بما اتَّصفَ به، من فصيحِ البيانِ

يعودُ الضّميرُ على ﴿ضَيۡفِ﴾ [الحجر: 51] بما اتّصَفوا به منَ الرّسالة، أي قال الضّيفُ المُرسلون.

فائِدةُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾:

الملائكةُ يأتمِرون بأمرِ الله، ويفعلونَ ما يُؤمَرون

تفيدُ (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، بمعنى تقريرِ إرسالِهم بالعذابِ إلى القومِ المُجرمين، وجاء الكلامُ مؤكَّدًا للإشعارِ بتقريرِ إرسالِهم وأنَّهم لا حيلةَ لهم في المخالفةِ.

بَلاغةُ مجيءِ المُسنَدِ جُملةً فعليَّةً:

تَحقيقُ إرسالِ الملائكةِ، إلى القومِ المُجرمين

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾، جاءتِ الجملةُ الفعليّةُ خبرًا عن (إنَّ) لإفادة تَقوّي حُكمِ إرسالِهم إلى القومِ المُجرمين، لِما صاحبَ المقاولةَ منَ السّؤال وما خامرَها منَ الإنكار، والمرادُ تحقيقُ إرسالِهم عندَ إبراهيمَ عليه السلام دونَ تخصيصِ الإرسال بهم، فيكونُ التّعبيرُ بالجملةِ الفعليَّةِ أقوى للحُكم وأثبتُ له ممّا لو قيل (إنّا مرسلون إلى قومٍ مجرمين).

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾:

إفـادةُ تحقُّقِ الوقوعِ، تأكيدٌ لتنفيذِ أمرِ الله تعالى

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي؛ للإيذانِ بأنَّ إرسالَهم إلى القومِ المُجرمين قد وقعَ وثبتَ، وأنَّ العذابَ واقعٌ لا محالةَ، فلا مجالَ للنّقاشِ في الأمرِ.

دَلالةُ صيغةِ المبنيّ للمفعولِ في ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾:

تـأدّبُ الملائكةِ بموافقةِ جوابِهم لسُؤالِ إبراهيمَ عليه السلام

لمّا خاطبهم إبراهيمُ عليه السلام بصيغةِ المبنيِّ للمفعول في قولِه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جاء قولُ الملائكة موافقًا له في الصّيغة، لتأكيدِ مقْصدِ إبراهيمَ عليه السلام وتأدُّبًا معه حين عبَّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول، وللإشعارِ بأنَّهم إنّما يفعلون ما يُؤمَرون.

مُناسبةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ ﴿قَوۡمٍ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿قَوۡمٍ﴾ للإشعارِ بأنَّ قومَ لوطٍ عليه السلام مُجتمِعون على أمرِهم وأنَّهم مظاهرون لِمَن هو منهم، وذَوو منعةٍ في شأنِهم، ولمّا كان لفظُ القومِ يُطلقُ على الرّجال عُبِّرَ به هنا عنِ الرّجال والنّساء على سبيل التّغليبِ وللتّنبيهِ على أنَّ بعضَهم يُقوّي بعضَهم الآخرَ فيما اجتمعوا عليه.

التَّعْبِيرُ بالقوم، لإفادةِ أنَّ بعضَهم يُقوّي بعضًا

فائِدةُ تَنْكِير ﴿قَوۡمٍ﴾ و﴿مُّجۡرِمِينَ﴾:

نُكِّرَ الموصوفُ وصفتُه في قوله تعالى: ﴿قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ﴾ تقليلًا لهم وللاستهانةِ بهم[1]، ويحتملُ أن يكونَ التّنكيرُ لتعظيمِ منعَتِهم ومظاهرتِهم لبعضِهم وأنَّ إجرامَهم كان إجرامًا عظيمًا[2].

المُجرمون أذلَّةٌ مُهانون، وإنِ ادّعَوا القوّةَ فيما يَزعمون

فائِدةُ مجيءِ الصّفةِ ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾:

جاءتِ الصّفةُ تقْييدًا للموصوفِ على معنى الذّمِّ، ولمّا تعلَّقَ الحكمُ بالموصوف بقيْدِ صِفتِه وكانتِ الصّفةُ وصْفًا مشتقًّا أفاد أنَّ سببَ إرسالِ الملائكة هو إجرامُ القوم، وأنَّهم كانوا عريقين في الإجرام، بفعلِ الفاحشةِ الشّاذَّة، وأنَّ إرسالَهم كان لأجلِ الإهلاكِ، واقتُصِرَ في الكلامِ على ذكر الموصوفِ وصفتِه دونَ التّصريحِ بذكر العذابِ لِعلْمِ إبْراهِيمَ عليه السلام بأنَّ المَلَائِكَةَ إذا أُرْسِلوا إلى المُجْرِمينَ كانَ ذلك لأجلِ إهلاكِهم واسْتِئصالِهم[3].

عَراقةُ الإجرامِ، في الشُّذوذِ والانحرافِ عنِ الفِطرةِ الإنسانيَّة

بيانُ المقصودِ من قوله: ﴿قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ﴾:

لمّا استثنَى ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ دلَّ على أنَّ المرادَ من ﴿قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ﴾ قومُ لوطٍ، فأفادَ الوصفُ بيانَ المرادِ مع الذَّمِّ.

التّعريفُ بالقومِ المُنحرفين بالوصْفِ الذّميم، تصويرٌ للواقعِ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/486.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/152، والبقاعي، نظم الدرر: 11/68.

مهمّةُ الملائكةِ إهلاكُ المُجرمين، وإنجاءُ المؤمنين

دَلالةُ الاسْتثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾:

يحتملُ هذا الاستثناءُ أن يكونَ اسْتِثْناءً مِنَ الضَّميرِ في ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ فيكونَ مُتَّصِلًا، كَأنَّهُ قيلَ: إنّا أرسلنا إلَى قَوْمٍ قَدْ أجْرَموا كُلُّهُمْ إلّا آلَ لوطٍ وَحْدَهُمْ، فـ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ مُستثنون مِنَ الإجرام باقون في حكم الإرسالِ، ويحتملُ أن يكونَ استثناءً مِنْ ﴿قَوۡمٍ﴾ فيكونَ مُنْقَطِعًا، لِأنَّ القَوْمَ مَوْصوفونَ بِكَوْنِهِمْ مُجْرِمينَ وَآلُ لوطٍ ما كانوا مُجْرِمينَ، فيكونَ إخراجُ آلِ لوطٍ على طريقِ الاستثناءِ من غيرِ جنسِ المُستثنَى، لاختلافِ الجنسَين، ويَخْتَلِفُ المعنَى بِحَسَبِ اخْتِلافِ نوعِ الاستثناء، فإن كان متَّصِلًا فالمَلائِكَةُ أُرْسِلوا إليهم جَميعًا، ولا يكونُ إرسالُهم خاصًّا للقومِ المجرمين، فيكونُ إرسالُ الملائكة بالنّسبة إلى المجرمين للإهلاك وإلى المؤمنين للإنجاء، أي لِيُهْلِكوا هَؤُلاءِ وَيُنَجّوا هَؤُلاءِ، وإن كان منقطعًا بمعنى أن يخرج آل لوطٍ من حكم الإرسال يكونُ إرسالُ الملائكة إلى القوم المجرمين خاصَّةً، وما أُرْسِلوا إلى آلِ لوطٍ أصْلًا، فيكونُ إرسالُهم إرسالَ هلاكٍ، بقصدِ عذابِ القومِ المجرمين[1].

دَلالةُ لفْظِ ﴿ءَالَ﴾:

لفظُ (الآل) يدخلُ فيه كلُّ مؤمنٍ، كما يدخلُ فيه خاصّةُ أهلِ لوطٍ

عُبِّرَ بِلفْظِ ﴿ءَالَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ للإيذانِ بأنَّ النّاجين هم أتباعُه الذين آمنوا به وكانوا على دينِه ونصروه، ففيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ منِ اتّبعَ أحدًا هو من آله، وله حكمُهم في النّجاةِ أوِ الهلاكِ، وبأنَّ الآلَ في قولِهم: اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ يدخلُ فيه كلُّ مَنْ تَبِعَهُ، كما يدخل فيه هنا الشَّخصُ نفسُه[2].

بَلاغةُ جملةِ الاستئنافِ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، لمّا كان الاستثناءُ في قولِه

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والفخر الرازي: 19/153، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/450، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/47، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153.

نَجّى الله المؤمنين، لعدَمِ انحرافِهم عنِ الفطرة، وإنكارِهم للشُّذوذِ

تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ محتملًا لأن يكونَ متّصلًا وأن يكونَ منقطعًا، كان توجيهُ تركيبِ ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ مَبنيًّا على ذلك الاحتمالِ، فإذا كان الاستثناءُ متّصِلًا كان التّركيبُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، ليكونَ بمنزلة جوابٍ لسؤالٍ سأله إبراهيمُ عليه السلام، فكأنَّه لمّا استُثْنِيَ آلُ لوطٍ فُهِمَ منَ الاستثناء أنَّهم ناجون منَ العذاب، فكان كأنَّه سألَهم على مقتضى التَّقريرِ والتأكيدِ لأهميَّة الأمرِ عنده، فقال لهم فما حالُ آلِ لوطٍ، وهل سينجون منَ الهلاكِ؟ فقيل ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، ليفيدَ الإخبارَ بنجاتِهم لعدم إجرامِهم ولتقريرِ ما فُهِم منَ الاستثناءِ من مُطلقِ عدمِ شمولِ العذاب لهم، ليكونَ تأكيدًا لمعنَى الاسْتِثْناءِ ولتعليل انتفاءِ العذابِ عنهم؛ فإنَّ مَنْ تُعلَّقُ بهم التَّنجيةُ ينجُّون من شمول العذابِ، وفي الاستئنافِ البيانيِّ اسْتِدرارُ أسماعِ المخاطَبين وإثارتُهم للإصغاءِ إلى رحمة الله بالمؤمنين وإنجائِهم منَ العذاب والهلاكِ، وإذا كان الاستثناءُ منقطِعًا جرى مجرى خبرِ (لكنّ) في الاتصال بآل لوطٍ؛ لأنّ المعنى: لكنَّ آلَ لوطٍ مُنجَون[1].

فائِدةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في الآية:

تَعظيمُ شأنِ إنجاءِ المؤمنين مِن عذابِ المُجرمين المُنحَرفين

أفادَ تتابُعُ التّأكيدِ بـ(إنَّ) واللّامِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ تقريرَ حكم إنجاءِ آل لوطٍ أجمعين وللإشعارِ بأنَّ تَنْجيتَهم هي تنجيةٌ عظيمةٌ[2].

فائِدةُ مَجيءِ (نا) في قولِه: ﴿إِنَّا﴾:

لا أحدَ يستطيعُ التّنجيةَ مِنَ العذابِ، إلّا الله الملكُ الغلّابُ

أفاد التّعبيرُ بـ(نا) تعظيمَ أمرِ تنجيَةِ المؤمنين من عذاب المُجرمين المُنحرفين، وأنَّه لا أحدَ يستطيعُ تَنْجيتَهم إلّا اللهُ الملكُ الواحدُ الأحدُ، وقرَّر هذا المعنى في قولِه تعالى: ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/582، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/487، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/179.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالنّجاءِ أنَّ غيرَهم هالكٌ، وأنَّ القصدَ منَ الإرسال إهلاكُ القوم، فهو تقريرٌ لأن يكونَ الاستثناءُ منقطِعًا.

التّنجيةُ العظيمةُ، تُؤْذنُ بأنَّ الهلاكَ كان عَظيمًا

نُكتةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾:

أفاد لفظُ ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ المشتقُّ منَ الفعل الثّلاثي المضعَّفِ (نجَّى) المبالغةَ في تنجيةِ آلِ لوطٍ؛ إيذانًا بشدَّة العذاب وهولِه. ولمّا كانَ الإنجاءُ بمعنى الانفصال عنِ الشّيءِ، وكانت النَّجْوَةُ والنَّجاةُ هي المكانُ المُرتفِع المنفصلُ بارتفاعه عمّا حوله، دلَّ التّعبيرُ بلفظ ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ على أنَّ العذابَ سيعمُّ القومَ والأرضَ التي هم فيها، وأنَّ المؤمنين سيخرجون من أرضِ المُجرمين المُنحرِفين، وأنّهم منفصِلون عنهم بإيمانِهم باللّه وبنبيِّهم لوطٍ عليه السلام مميَّزون عنهم بأفعالِهم، كما أفاد أنَّ لِلمؤمنين النّاجين مكانةً مرتفعةً.

عذابُ المُجرمين المُنحرِفين، يعمُّ القومَ والأرضَ

فائِدةُ التَّأكيدِ بقولِه: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

أفاد التّأكيدُ بلفظِ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾، إحاطةَ آل لوط بالتّنجيةِ منَ العذاب، ففيه إشعارٌ برحمة اللّه تعالى بهم، كما أفادَ دفعَ توهّم أن يكون أيُّ فردٍ منهم، قد بقيَ مع الهالكين إلّا امرأتَه التّي قدّر اللّه أن تكون منَ الغابرين.

إحاطةُ آلِ لوطٍ بالتّنجيةِ إلّا امرأتَه، تفريقٌ بين من آمن، ومن كفرَ

بَراعةُ الاستثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

استثناءٌ منَ الضّمير في قوله تعالى: ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾، أو من ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، فهو استثناءٌ منَ المُستثنى، فرجعتِ امرأتُه في التأويل إلى القوم المجرمين؛ وفائدةُ مجيء الاستثناء بهذه الطريقة - بحيث لم تدخلِ امرأةُ لوطٍ في القوم المجرمين من أوّل الأمر - أمران: أحدُهما: الإيذانُ بأنَّه كان الأحقَّ والأحرى بها أن تكون منَ النّاجين؛ لأنَّها من آل لوطٍ، لكنَّها كانت منَ الباقين فهلكت، والثّاني هو أنَّه لمّا كان المستثنى الأوّلُ (آلَ لوطٍ) في ضمنِه امرأتُه، وهي لا يجري

امرأةُ الرّجلِ أولَى النّاسِ به، اتّباعًا في إيمانِه وعملِه

الحكمُ عليها بما حُكِمَ به لآل لوطٍ منَ النّجاءِ، وكان تمامُ المعنى يقتضي إدخالَه في لفظه ولا يمكنُ العبارة عنه دون ذلك الذي يجري الحكمُ عليهم، اقتضى الكلام استثناءً ثانيًا لإخراجها من حكم آل لوطٍ وإدخالِها في حكم القوم المجرمين[1].

دَلالةُ الضّمير في قولِه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

امرأةُ الرّجلِ من آلِه، وكفرُها استثْناها منَ النّجاةِ

يعودُ الضّميرُ على ﴿لُوطٖ﴾ بما اتّصفَ به من صفة الإنجاءِ، والمعنى: إلّا امرأةَ لوطٍ الذي نجّيناه وآلَه معه، فيفيدُ الاستثناءُ أنَّها ليست بناجيةٍ منَ الهلاكِ، وإنّما استثناها لدخولِها في آلِه.

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

لا جدوى منَ النسبِ والمُصاهرة، إذا عُدمَ الإيمانُ بقوّةِ الله القاهرة

قولُه تعالى: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، لمّا استثنَى الملائكةُ امرأةَ لوطٍ من أن يُنجّوها، تشوَّفتِ النَّفسُ للوقوفِ على ما قضى اللّهُ به من ذلك، فكأنَّه قيل: فما كان حالُها وهي امرأةُ لوطٍ؟، فقيل ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، تقريرًا لما فُهِمَ من دلالة استثنائِها منَ النّاجين منَ العذاب.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿قَدَّرۡنَآ﴾:

منَ الإجرامِ المُشاركةُ في الفسادِ، والدّلالةُ عليه

لمّا كان لفظُ التّقديرِ بمعنى جعْلِ الشَّيءِ على مقدار غيرِه لتظهرَ المُساواة والمباينةُ أفادَ أنَّ عذابَ امرأة لوطٍ إنّما كانَ لمُساواتِها قومَها في عملِهم، لمشاركتِها معهم في الفساد، وكانت تدلُّ قومَه على أضيافِه، فاستوجبتِ العقوبةَ معهم، ولمباينتِها آلَ لوطٍ في اتّباعِ لوطٍ على إيمانِه ودينِه[2].

بَلاغةُ تضمينِ الفعلِ في قولِه: ﴿قَدَّرۡنَآ﴾:

هلاكُ امرأةِ لوطٍ، بحِكمةِ الله وتقديرِه

عُلّقَ فعلُ التّقدير هنا مع اختصاصِ التّعليق بأفعال القلوبِ؛

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/582، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/367، والثّعلبي، الكشف والبيان: 15/480، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/214.

(2) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 997، والبقاعي، نظم الدرر: 11/69، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

لتضمُّنِه معنى العلم، لترتّبِ تقديرِ عذابِها على علْمِهم به بما علّمهم اللّه، ففيه إيجازٌ، وفائدةُ التّضمين إثباتُ عذابِها بطريق العلم، والتّقديرُ أنَّ امرأته منَ الغابرين، ليفيدَ أنَّ هلاكَها هو بحكمةِ اللّه تعالى[1].

سببُ الإسْنادِ في الفعْلِ ﴿قَدَّرۡنَآ﴾:

المأمورُ بأوامرِ الملكِ، له حقُّ نسبةِ الأمرِ إلى نفسِه

أُسندَ الملائكةُ فعْلَ التّقديرِ إلى أنفسِهم، وهو للّه تعالى وحدَه، ولم يقولوا (قدَّر اللّه إنّها لمن الغابرين) للإشعارِ بما لهم منَ القُرب والزُّلفى والاختصاص باللّه، ولِأنَّهم هُمُ المَأْمورونَ بإهْلاكِهم، كما يَقولُ مَنْ يقومُ بأوامرِ المَلِكِ ومن هو مُتَصَرِّفٌ بِأوامِرِه: أمَرْنا بِكَذا، والآمِرُ هو المَلِكُ، أي لِأنَّهُمْ مُزْمِعونَ على سَبَبِهِ[2].

بَلاغةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في السّياقِ:

التَّأكِيدُ لقَطْعِ سُؤالِ النّجاةِ لامرأةِ لوطٍ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، فيه تتابعُ التّأكيد بـ(إنَّ) واللّام الموطِّئة للقسم؛ لأجل ما أُشير إليه هنا من عظيم تشوُّفِ الخليل ﷺ إلى معرفة أمرهم ورغبتِه في نجاة لوط وجميعِ آله، فجاء التّأكيدُ متتابعًا لقطعِ طمَعِه عن سؤالٍ في نجاتها، ولأنَّه قد يخامرُ السّامعين أنَّها قد تَنجو لأنَّها امرأةُ لوطٍ[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

التّحذيرُ منَ التّخلُّفِ عن ركبِ المؤمنين، ففيه الهلاكُ بيقينٍ

أفاد التّعبيرُ بـ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أنَّها منَ الباقين، كما أشعر اللّفظُ أنَّها منَ المتخلّفين عنِ الخروج[4]، ليفيدَ أنَّها ارتكبت معصيةً أخرى سوى مناصرتِها لقومِها، بعدم إطاعتِها نبيَّ اللّه لوطاً ﷺ في الخروج معه، فكانت منَ الباقين مع الكفرة ومنَ المتخلّفين عنِ الخروج،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/487.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/582، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/62.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.

(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/259.

"ليفيدَ أنَّها تَتَخَلَّفُ وتَبْقَى مع مَنْ يَبْقَى حتّى تَهْلِكَ كَما يَهْلِكونَ، ولا تَكونُ مِمَّنْ يَبْقَى مع لوطٍ فَتَصِلُ إلى النّجاة"[1].

فائِدةُ حذْفِ مُتعلّقِ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

إفادةُ العمومِ، إيحاءٌ بشُموليّةِ العذابِ لكلّ من يَستحقُّه

أفاد حذفُ متعلّقِ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ العمومَ بمعنى أنَّها منَ الغابرين مع المُجرمينَ المُنحرفين الكفرةِ، فهي باقيةٌ معهم، ومنَ المُتخلّفين عنِ الخروج مع لوطٍ عليه السلام، أي لتهلكَ مع القومِ المُجرمين.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأهلُ والآلُ:

الأهـلُ علاقةٌ بالنّسبِ، والآلُ بالقرابَةِ أوِ الصُّحبةِ أوِ الاتِّباعِ

الأهلُ يُستعملُ فيما كان من جهة النَّسبِ والاختصاصِ، فمن جهةِ النّسبِ يقال: أهلُ الرّجلِ لقرابته الأدْنين، ومن جهة الاختصاص، يقال أهلُ البصرةِ وأهلُ العلم، أي الجماعةُ المختصّةُ بما أضيفَ الأهلُ إليه، وأمّا الآلُ فهو خاصَّةُ الرّجل من جهة القرابةِ أوِ الصُّحبة أوِ الاتِّباع، فيقال آلُ الرّجل لأهلِه وأصحابه ولا يقال آلُ البصرة وآلُ العلم، و(آل لوطٍ) أتباعُه وكذلك آلُ (فرعون)، وثمَّة فائدةٌ في استعمال الآلِ تختلف عنِ الأهل، فالآل إن أُفرد دخل فيه المُضاف إليه كقوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وقوله تعالى ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]، وَأمّا إن ذُكر الرّجلُ ثمَّ ذكرَ آلَه لم يدْخلْ فيهم، فَفرقٌ بَين المُجَرّد والمقرون، فَإذا قيل (اعْط لزيد وَآل زيد) لم يكن زيد هُنا داخلا في آله، وَإذا قيل: (اعْطه لآل زيد) تناول زيدًا وَآله، وأيضًا، قد يذكرُ آلُ الرّجل، والمرادُ به الرّجل[2].

تَوْجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في السّياقِ:

أوّلًا: قرأ حمزةُ والكسائيّ والحضرميّ (إنا لَمُنْجوهم أجمعينَ)،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/624، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 281، وابن القيم، جلاء الأفهام، ص: 209.

اختلافُ القراءاتِ، يُفيدُ في ثراءِ المعنى وبيانِه

وقرأ ابْنُ كثيرٍ ونافِعٌ وعاصِمٌ وأبو عَمْرو وابْن عامر ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مشدّدةً[1]، ووجْهُ التّخفيف هو الإيذانُ بسهولةِ الأمرِ عند اللّه تعالى، أمّا وجهُ التّشديد فهو للتّنبيهِ على أنَّ أمرَ إنجائِهم كان عظيمًا؛ وللإشعارِ بعِظمِ هلاكِ القوم المَجرمين وهوْلِ استِقصائِهم.

ثانيًا: قرأ أبو بكرٍ عن عاصم في هذه الآية (قَدَرْنا) بالتّخفيف وقرأ الجميعُ بالتّشديد ﴿قَدَّرْنَآ﴾[2]، وقراءةُ التّشديد تفيدُ معنى المبالغةِ في التّقدير، وقراءةُ التّخفيف على معنى أصلِ الفعل، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ التَّخفيفَ بمعنى التَّثقيلِ[3].

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/71، وابن الجزري، النشر: 2/259.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/302.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/367.